ماريو بينيديتي (الأوروغواي)

صـلاة جنـازة في مقهـى (1)

نعم، اسمي ادواردو. أنت تسألني عن اسمي لتبدأ الحديث معي بطريقة ما، انا افهم ذلك. لكن انت تعرفني منذ زمن طويل ولو من بعيد. كما أعرفك أنا. منذ الوقت الذي بدأت تلتقي فيه امي في مقهى «لالانياغا وريبيرا»، او في هذا نفسه. لا تظن اني كنت اتجسس. لا، لا. أنت ربما تفكر ذلك، ولكن لأنك لا تعرف القصة كلها. أحَكَتْها لك امي ؟ منذ وقت طويل وأنا اريد ان اتكلم معك، لكني ما كنت اتشجع. ولهذا فشكرا على كل حال لانك سبقتني الى ذلك. أعرفت لماذا كنت اريد ان اتكلم معك ؟ لأني يظهر لي أنك رجل طيب. ماما كانت طيبة كذلك. أنا وهي لم نكن نتكلم كثيرا. في الدار إما كان يسود السكوت أو كان ابي يتكلم. لكن بابا كان لا يتكلم الا لما يجيء سكران، وكان هذا يكاد يحدث كل ليلة، وعندئذ لم يكن كلامه كلاما بل صراخا. نحن الثلاثة ــ أنا وماما واختي ميرتا ــ كنا خائفين منه. عمري الآن ثلاثة عشر عاما ونصف، وتعلمت اشياء كثيرة، منها ان الرجال الذين يصرخون ويعاقبون ويسبون ما هم في الواقع غير اشقياء مساكين. ولكن في ذاك الوقت كنت انا مازلت اصغر بكثير ولم اكن اعرف ذلك. ميرتا لا تعرف ذلك حتى الان، ولكن هي اصغر مني بثلاث سنين، وأنا عارف انها احيانا تفيق في الليل وهي تبكي. الخوف. أشعرت انت مرة بالخوف ؟ ميرتا تظن دائما ان بابا سيظهر سكران وأنه سيزول حزامه ويضربها. مازالت لم تتعود على حالتنا الجديدة. أما أنا فبالعكس، حاولت أن أتعود. أنت ظهرت قبل عام ونصف، ولكن بابا يسكر قبل ذلك بكثير، وما كادت الخمر تقبضه حتى بدأ يضربنا نحن الثلاثة. أنا وميرتا كان يضربنا بالحزام، وهو يؤلم كثيرا، ولكن ماما كان يضربها بقبضته. كان يضربها لأنه يريد ذلك فقط، بلا سبب غير هذا: لأن الحساء كان ساخنا جدا أو لأنه كان باردا جدا، أو لأنها لم تنتظره مفيقة حتى الثالثة بعد منتصف الليل، او لأن عينها كانت منتفخة من كثرة البكاء. ما عرفت كيف كانت تعمل، ولكن لما كان هو يضربها لم تكن هي تبكي، ولا حتى تعض شفتيها، وكان هذا يزيد بابا غيظا. هي كانت تعرف هذا، ومع ذلك كانت تفضل ألا تبكي. انت عرفت ماما لما كانت قد صبرت وتعذبت كثيرا، ولكن قبل اربع سنين من ذلك فقط (أنا أتذكر جيدا) كانت مازالت جميلة وكان لونها لون عافية. زيادة على ذلك كانت امرأة قوية. في بعض الليالي لما كان بابا يسقط اخيرا ضاحا ويبدأ فورا يشخر، كنا انا وهي نرفعه ونذهب به حتى الفراش. كان ثقيلا جدا، وزيادة على ذلك كان حمله كحمل ميت. هي التي كانت تكاد تتحمل كل الثقل. انا كنت احمل رجلا واحدة فقط، رجلا بسروال ملطخ بالوحل تماما وحذاء بني بخيوط محلولة. انت ستظن بلا

شك ان بابا كان حيوانا حياته كلها. ولكن لا. بابا حطمه عمل قذر آذوه به. وآذاه به ابن عم لماما بنفسه، ذاك الذي يعمل في البلدية. أنا ما عرفت قط ماذا عمل، لكن ماما كانت من زاوية ما تعذر انطلاقات الغضب لبابا، لانها كانت تشعر بقليل من المسؤولية لكون احد افراد عائلتها هي آذاه كما فعل. ما عرفت قط اي نوع من الأعمال القذرة آذاه به، لكن الحقيقة هي ان بابا كلما كان يسكر يلومها كأنها المسؤولة الوحيدة. قبل ذاك العمل القذر كنا نعيش حياة بلا مشاكل. لا من ناحية المال، فنحن انا وأختي ولدنا في مسكن واحد (مسكن يكاد يكون مشتركا) قرب «بيا ضولوريس»، أجرة بابا ما كفت قط، وماما كان لابد ان تعمل معجزات دائما لتعطينا ما نأكل وتشري لنا من وقت لآخر صدرية صوف أو حذاء قماشيا. مرت بنا ايام كثيرة جعنا فيها (لو عرفت ما اقبح ان تبقى جائعا)، ولكن في ذاك الوقت كان السلام موجودا في دارنا على الأقل. بابا ما كان يسكر ولا يضربنا، وأحيانا كان يذهب بنا حتى الى السينما. في احد نادر كان المال فيه موجودا. انا أظن انهما ما احبا بعضهما كثيرا قط. كانا مختلفين جدا. حتى قبل ذاك العمل القذر، لما لم يكن بابا يشرب، كان انسانا متكدرا. احيانا كان يغبق في الظهر ولا يكلم احدا، ولكن لم يكن يضربنا ولا يسب ماما على الاقل. ليته بقي هكذا حياته كلها. بعد ذلك جاء العمل القذر فتحطم هو. بدأ يذهب الى البار ويرجع بعد منتصف الليل دائما، برائحة كريهة لعرق رخيص. في الأيام الاخيرة كان الأمر اسوأ، لانه كان يسكر نهارا ولا يخلي لنا حتى تلك الهدنة. أنا متأكد ان الجيران كانوا يسمعون كل صرخاته، لكن لم يكن احد يقول شيئا، طبعا، لان بابا جسمه كبير جدا وهم كانوا يخافون منه. حتى انا كنت اخاف منه، لا على نفسي فقط او على ميرتا، وانما على ماما بالخصوص. أحيانا كنت لا أذهب الى المدرسة، لا لأني احب ان أهرب منها، بل لأبقى احوم حول الدار، فانا كنت اخاف دائما ان يجيء بابا في النهار سكران فوق الحد فيطحنها بالضرب. أنا ما كنت قادرا على الدفاع عنها، أنت ترى كم انا ضعيف وصغير، في ذاك الوقت كنت اضعف وأصغر، لكني كنت اريد ان ابقى قريبا لأخبر البوليس. اعرفت انت أن بابا وماما لم يكونا من ذلك الوسط ؟ اجدادي لن اقول كان عندهم مال، ولكن كانوا يعيشون في ديار نظيفة على الأقل، ديار بشرف على الشارع وحمامات بحوض استبراء ومغطس. بعدما وقع ما وقع ذهبت ميرتا لتعيش مع جدتي خوانا، أم ابي، وأنا اعيش الآن في دار جدتي بلانكا، ام ماما. الآن كادتا ان تتخاصما بسبب كفالتنا، ولكن لما تزوج بابا وماما اعترضتا على ذلك الزواج (أفكر الآن انهما ربما كانا على حق) وقطعتا علاقتهما بنا. أقول بنا لان بابا وماما تزوجا لما كنت انا في شهوري الستة الأولى. هذا حكوه لي في المدرسة ففرقعت انف بيطو، ولكن لما سألت ماما قالت لي ذلك صحيح. طيب، انا كانت عندي رغبة في ان اتكلم معك، لانك (لا أعرف ماذا ستفكر لما تسمع هذا) كنت مهما بالنسبة لي، والسبب بسيط وهو انك كنت مهما بالنسبة لماما. أنا احببتها كثيرا، طبعا، لكن اظن اني ما استطعت قط ان اقول لها ذلك. كنا دائما خائفين جدا، وما كان يبقى لنا وقت للحب.

لكن لما كانت هي لا تراني كنت انظر اليها وأحس لا اعرف بالضبط بماذا، بشيء مثل انفعال لم يكن شفقة، وإنما خليطا من الحب وكذلك الغيظ لاني اراها مازالت شابة وقريبة جدا من ان تكون عجوزا، ومقهورة جدا بسبب ذنب ليس ذنبها وعقاب لم تكن تستحقه. وأؤكد لك أن امي ــ أنت ربما عرفت هذا ــ كانت ذكية، وبهذه المناسبة اقول اظن انها كانت اذكى بكثير من ابي، وهذا بالنسبة لي كان هو الأسوأ : ان اعرف انها كانت ترى تلك الحياة الكريهة بعينيها مفتوحتين جيدا، ما قدر الفقر ولا الضرب ولا حتى الجوع على ان يخبلها. كان ذلك يحزنها، نعم. في بعض الأحيان كان يتكون حول عينيها تهجيج ازرق تقريبا، لكنها كانت تغضب لما أسألها مالها. كانت في الواقع تتصنع الغضب. ما رأيتها قط غاضبة على حقا. ولا على احد. لكن قبل ان تظهر انت كنت انا لاحظت انها تزداد غما، تزداد انطفاء تزداد وحدة. ربما بسبب هذا استطعت ان ألاحظ الفرق بوضوح. زيادة على ذلك جاءت متأخرة قليلا ذات ليلة (ولكن كانت دائما تجيء قبل بابا بكثير) ونظرت الي بطريقة مختلفة، جدا، الى درجة اني عرفت ان هناك شيئا يحدث. كأنها عرفت لأول مرة اني قادر على ان افهمها. عانقتني بقوة، بشبه خجل، ثم ابتسمت لي. اتتذكر انت ابتسامتها ؟ انا اتذكرها. نعم. أنا شغلني ذاك التغير جدا، الى درجة اني غبت مرتين او ثلاثا عن العمل (في الأيام الاخيرة كنت اعمل موزعا في مخزن) لاتبعها واعرف ماذا هناك. عندئذ رأيتكما. انت وهي. أنا فرحت كذلك. الناس يمكن ان يفكروا اني شرّير، وربما كان غير جائز ان افرح لان امي كانت تخون ابي. يمكن ان يفكروا ذلك. ولهذا لا اقوله قط. انت شيء آخر. انت كنت تحبها. وكان ذلك بالنسبة لي كحظ. لانها كانت تستأهل ان يحبوها. انت كنت تحبها، اليس كذلك ؟ رأيتكما معا كثيرا وأنا متأكد من ذلك. احاول ان افهم بابا كذلك طبعا. ليس ذلك سهلا، لكني احاول. ما استطعت قط ان اكرهه، افهمت ؟ ربما لانه ابي، رغم الشيء الذي عمله. لما كان يضربنا انا وميرتا او يهجم على ماما كنت في غمرة رعبي اشعر بالشفقة. الشفقة عليه وعليها وعلى ميرتا وعلى نفسي. احس بها الآن كذلك، الآن وقد قتل هو ماما ومن يدري كم سيبقى في السجن. في البداية لم يكن يريد ان ازوره، ولكن منذ اقرب من شهر وأنا ازوره في ميغيليتي وهو يقبل ان يراني. يبدو شيئا غريبا بالنسبة لي ان اراه طبيعيا، اعني دون ان اجده سكران. هو ينظر الى، وفي اغلبية الاحيان لا يقول لي شيئا. اظن انه لما يخرج لن يضربني. زيادة على ذلك، أنا سأكون رجلا، ربما أكون تزوجت، وربما يكون عندي اولاد كذلك. لكن أنا لن اضرب اولادي،ما رأيك ؟ زيادة على ذلك انا متأكد ان بابا لو ما كان سكران لما عمل ما عمل. اتظن انت العكس ؟ اتظن انه كان سيقتل ماما على كل حال ذاك المساء الذي تبعني فيه ليعاقبني فاكتشفكما اخيرا انتما الاثنين ؟ لا أظن. لاحظ انه ما مسك انت. لم يهجم على ماما الا بعد ذلك، لما شرب عرقا فوق الحد. انا اظن انه في ظروف اخرى، كان سيفهم ان ماما في حاجة الى حب، الى عطف، وأنه بالعكس ما اعطاها غير الضرب. لان ماما كانت طيبة، انت بلا شك تعرف ذلك جيدا، مثلي. لذلك لما اقتربت مني قبل قليل

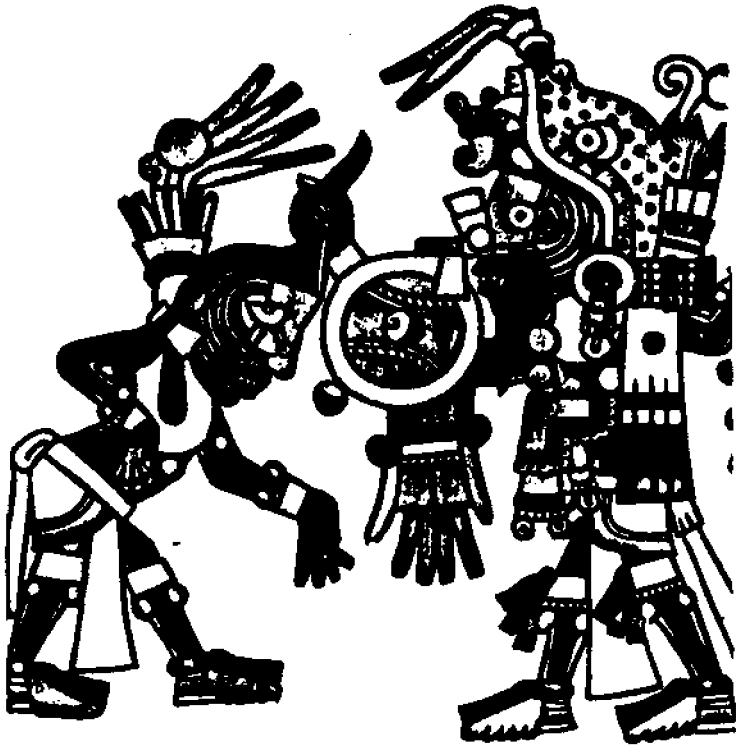

وعرضت علي ان اتناول معك قهوة وخبزا محمصا، هنا، في نفس المقهى الذي كنت تلتقيها فيه، احسست انني يجب ان احكي لك كل هذا. ربما لم تكن انت تعرفه، أو كنت تعرف قليلا منه، لأن ماما كانت ساكوته وفوق كل شيء لم يكن يعجبها ان تتكلم عن نفسها. انا متأكد الآن اني عملت عملا مفيدا. لانك الآن تبكي، وبما ان ماما ميتة، فان بكاءك هو كجائزة لها هي التي ما بكت قط.

ترجمة : محمد العشيري

ـــ ماريو بينيديتي، اديب من الأوروغواي ولد عام 1920. يعيش حاليا منفيا في إسبانيا . يكتب الشعر والقصة والرواية والمقالة. له انتاج شعري غزير. من اعماله الروائية : الهدنة (1960) وعيد ميلاد خوان آنخيل (1971).

عن كتاب :

- LA MUERTE YOTRAS SORPRESAS. M. BENEDETTI. SIGLO XXI EDITORES MEXICO. 1979.

(1) تُنَبِّهُ القراء إلى أننا في هذه القصة (وفي قصص أخرى من هذه المختارات) تعمدنا أن نقترب من عاميتنا المغربية نظرا لأن المتكلم الوحيد فيها هو صبي لغته بسيطة قريبة من العامية الأوروغوايية (والحوار في القصص الأخرى عامي محلي غالبا) (المترجم)